الباب الأول

الأيوبيون

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

عن ميلاد صلاح الدين -مؤسس دولة بني أيوب- تحكى حكايات غريبة، ومن أغربها أن أباه نجم الدين أيوب بن شاذي تطيّر من مولده.

وحقيقة الخبر أن نجم الدين أيوب كان حاكماً على تكريت شمال بغداد، لكن طموحه إلى العلا ساقه إلى أن ينضم إلى أحد الأمراء الذين طمعوا في الانفراد بالسلطة في بغداد، ولسوء حظه انكشفت المؤامرة، وتعقب السلطان حين تم له النصر في بغداد خُطا المتآمرين ليقتص منهم، فما كان من صاحبنا نجم الدين إلا أن ركن إلى الفرار لينجو بحياته ومعه أسرته الصغيرة.

لكن في تلك الليلة بالذات، ليلة الفرار ولد لنجم الدين ولده صلاح الدين.

وبالطبع لم يفرح الرجل بمولوده الجديد بل تطيّر منه، ولكن يشاء الله تعالى أن يكون هذا المولود من عظماء قادة العالم الإسلامي، ومن الذين سجلوا أسماءهم في صفحة المجد بأحرف من نور.

لقد ولد صلاح الدين والعالم الإسلامي وقتها منقسم على نفسه، تتنازعه قوتان:

الأولى: الدولة العبيدية التي استقرت بالقاهرة وسيطرت على جنوبي الشام والحجاز وشمالي إفريقية، وعاشت في قبضة الوزراء الذين تلاعبوا بالخلفاء، وتنازعوا السلطة فيما بينهم، وانتشرت الدسائس فيهم.

والثانية: الدولة العباسية في بغداد، وكانت السلطة فيها مركزة في أيدي الأتراك الذين تولوا قيادة الجيوش، وتناحروا فيما بينهم حتى ظهرت دويلات الانفصال.

وهدد العالم الإسلامي قوتان كاسحتان، أتت أولاهما من أقصى الشرق وهي قوة الأتراك السلاجقة الذين هبطوا من أواسط آسيا ودخلوا بغداد، وطردوا دولة بني بويه وقضوا على الدويلات الإسلامية في الشرق ووحدوا الدولة الإسلامية على يد طغرل بك وخلفائه، وحين تولى ألب أرسلان ابن أخي طغرل بك قيادة جيوش السلاجقة استطاع الاستيلاء على حلب والحجاز، وتهددت عاصمة الروم القسطنطينية وأسر إمبراطور الروم (رومانوس ديوجين) نفسه، كل ذلك سنة ٤٦٤ هجرية ١٠٧١ ميلادية.

أما خلفه السلطان ملكشاه فأخضع سورية وجورجيا وبخارى وسمرقند وخوارزم، وعبرت قواته نهر سيحون وأخضعت التركستان.

أما القوة الثانية فتتمثل في الصليبيين الذين وفدوا من الغرب لاحتلال العالم الإسلامي واستنزاف موارده، والطريف أن الإمبراطور المأسور (رومانوس ديوجين) حين أطلق سراحه وعاد إلى عاصمة بلاده أرسل إلى البابا (أوريان الثاني) في مجمع كليرمونت الديني بجنوب فرنسا يستصرخه ويستعديه على العرب المسلمين، فدعا البابا النصارى في الغرب لحرب السلاجقة وطردهم من الشرق.

وكان من الأسباب الحقيقية للتفكير في غزو الشرق أن نظام الإقطاع في الغرب كان يسمح للابن الأكبر بأن يرث كل ممتلكات أبيه المتوفى، بينما يظل باقي الأبناء يستجدون أخاهم الأكبر العيش على الكفاف.

ولم يلبث هؤلاء أن سرُّوا سروراً بالغاً بالذهاب إلى الشرق للفوز بكنوزه وللاستيلاء على إماراته ومقاطعاته.

وهاهم الصليبيون بجيوشهم الكثيرة شاهرة السلاح يعبرون البوسفور ويهزمون السلاجقة، ويستولون على بيت المقدس في نهاية سنة ١٠٦٩ هجرية ليؤسسوا المملكة الصليبية في الشام.

أسس الصليبيون إمارات صغيرة في الشرق أشهرها الرها وأنطاكية وإمارة بيت المقدس.

كل ذلك والعبيديون والعباسيون يغطون في نوم عميق.

وظهر الأتابكة في دولة السلاجقة.

والأتابك تعني الوالد الأمير، فكان ملوك السلاجقة يعهدون بأبنائهم إلى مماليكهم الأتراك أو الأتابك ليربوهم.

وهنا نفرّق بين أتابكة دمشق وأتابكة الموصل؛ فأتابكة دمشق ينتسبون إلى السلطان طغتكين قائد جيش السلاجقة في عهد حاكم دمشق تتش بن ألب رسلان.

أما أتابكة الموصل فنسبتهم إلى عماد الدين زنكي أتابك السلطان ملكشاه.

وحين مات عماد الدين سنة ١١٤٦م انقسم ملكه بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل، ونور الدين محمود الذي حكم حلب.

وإلى عماد الدين زنكي كان فرار نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه من السلطان.

وبوفاة عماد الدين صار الأخوان نجم الدين وأسد الدين في خدمة نور الدين محمود حاكم حلب.

لقد استطاع عماد الدين حصار إمارة الرها الصليبية واستعادتها من الصلبيين، وحين بلغت الأنباء أوربا سرعان ما جهزت الحملة الصليبية الثانية على الشرق سنة ١١٤٧م.. وكانت بقيادة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا.

وكان عماد الدين قد لقي ربه قبل هذه الحملة، وكذلك توفي طغتكين حاكم دمشق فاستولى نور الدين على دمشق وشرع في جمع كلمة المسلمين.

واستطاع نور الدين أن يصد غزو الصليبيين عن دمشق، ثم طمحت نفسه إلى ضم مصر، ليحاصر الصليبيين من الجنوب، فأمر أسد الدين شيركوه بالاستيلاء على مصر.

وكان صلاح الدين بصحبة عمه في الحملة الموجهة إلى مصر.

obeikandl.com

الفصل الأول

صلاح الدين

ولد صلاح الدين في ليلة ليلاء من عام ١١٣٨م، تلك الليلة التي فرت فيها أسرته هرباً من القتل وطلباً للنجاة. وها نحن نمضي مع ذلك البطل العظيم وقد قدم بمعية عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر.. وكان شاور وضرغام، والأول كان والي الصعيد من قبل الدولة العبيدية، أما الثاني فكان قائداً للجيش العبيدي، كان الاثنان في صراع مميت على السلطة، واستطاع الثاني الاستيلاء على الوزارة عنوة فأسرع الأول يستعدي صاحب دمشق، نور الدين محمود للقدوم والاستيلاء على مصر.

استطاعت الحملة الدمشقية هزيمة ضرغام، وأعيد شاور إلى منصبه وكان ذلك في شهر رجب سنة ٥٥٩هـ.

لكن شاور الغادر راسل عموري ملك بيت المقدس الصليبي، وسرعان ما أرسل الصليبي جيشاً فاضطر أسد الدين إلى الجلاء عن القاهرة والعودة من حيث أتى كيلا يتدخل الصليبيون في شؤون مصر.

بيد أنه كان لابد لأسد الدين من الرجوع إلى مصر وفي معيته صلاح الدين، في تلك المرة وبعد ثلاث سنوات أقبل جيش دمشق للاستيلاء على

مصر، ذعر شاور ذعراً شديداً واضطرب اضطراباً عظيماً، وراسل عموري مرة أخرى فأقبل جيشه ليحارب مع جيش العبيديين القوات الدمشقية، وعند بلدة (البابان) قرب محافظة المنيا المصرية دارت الحرب الضروس، وانكسرت شوكة الصليبيين، فانسحبوا إلى الإسكندرية يحاصرونها براً وبحراً وبداخلها صلاح الدين وحامية من جيشه المسلم.

أرسل صلاح الدين يستنجد بعمه ويطلب منه العون والمدد، فأقبل إليه مسرعاً في جيش كثيف، فعمد الصليبيون إلى الجلاء عن الإسكندرية وإلى طلب الصلح.

ورحل الصليبيون إلى بيت المقدس وعاد الدمشقيون إلى دمشق، لكن شاور كان يؤثر بقاء قوة صليبية في مصر حتى يقطع على نور الدين الطريق إليها، ففاوض عموري على ذلك لقاء أن تدفع مصر لعموري مئة ألف دينار في العام من خراجها.

وكان الحاكم العبيدي العاضد يغطّ وقتها في نوم عميق.

لقد حلا لملك الصليبيين أن يحتل مصر، فخرج أوائل عام ٥٦٤هـ على رأس حملة صليبية ضخمة قاصداً القاهرة، وهنا أشعل شاور النار في الفسطاط بعد أن أجلى عنها أهلها ورحّلهم إلى القاهرة، وحاصر الصليبيون

القاهرة حصاراً شديداً، وأدرك شاور أن عموري يريد مصر لنفسه فعجّل بمراسلة نور الدين يطلب النجدة على أن ينزل له عن ثلث البلاد على شرط أن يقيم شيركوه بجنده إقامة دائمة.

ولقد مر بك في الكتاب الرابع من السلسلة (الدولة العبيدية) كيف استطاع شيركوه هزيمة الصليبيين وكيف تخلّص من شاور وتولى الوزارة في مصر من قبل العاضد الحاكم العبيدي، وحين أدرك الموت شيركوه ولّى الحاكم العبيدي صلاح الدين الوزارة.

ثم كانت مؤامرة القصر العبيدي على صلاح الدين الوزير بقيادة مؤتمن (جوهر)، وانتصر صلاح الدين عليها، ثم ثار أتباع جوهر فاضطر صلاح الدين إلى حربهم وهزمهم في حي بين القصرين بالقاهرة وشتت فلولهم في الصعيد، وخلص منهم جميعاً.

واستقرت الأمور لصلاح الدين في مصر بعد أن هزم قوات عموري في ربيع الأول سنة ٥٦٥هـ، وبعد عامين قضى صلاح الدين على الدولة العبيدية.

رأى صلاح الدين أنه لا خلاص من الخطر الخارجي الذي يهدد مصر والشام والعالم الإسلامي بغير الوحدة، وحين توفي نور الدين سنة ٥٦٩هـ

وخلف طفلاً صغيراً هو الصالح إسماعيل خشي صلاح الدين خطر ضياع دمشق، فأسرع بالخروج من مصر إلى دمشق، واستولى على حمص، واستعد للقاء ريموند صاحب طرابلس الصليبي وسيف الدين غازي صاحب الموصل، وتمكن من هزيمتهم خارج مدينة حماة سنة ٥٧٠هـ، وحاصر حلب ثم صالح أهلها وعاد إلى مصر.

حين توفي سيف الدين غازي والصالح إسماعيل سنة ٥٧٧هـ، سارع صلاح الدين بقواته واستولى على بلاد الجزيرة قرب الموصل، وعزل الموصل عن حلب. وفي سنة ٥٨١هـ تمكن من الاستيلاء على حلب، ثم لم يلبث بعد أن عقد مؤتمر حران، وفيه تصالح صلاح الدين وحكام البلاد الإسلامية سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م)، وصار زعيماً للعالم الإسلامي، وحشد القوى الإسلامية لمحاربة الصليبيين.

حدث في عام ٥٨٢هـ أن انقض أرناط صاحب الكرك الصليبي على قافلة مسلمة كانت متجهة إلى القاهرة من دمشق وقتل رجالها وسبى نساءها ناقضاً الهدنة التي بين صلاح الدين والصليبيين والتي كانت مدتها أربع سنوات ٥٨٠-٥٨٤هـ (١١٨٤-١١٨٨م).

كانت في القافلة أخت لصلاح الدين، ولما بلغ الخبر صلاح الدين استشاط غضباً وأقسم ليقتلن أرناط بسيفه.

وبذلك نقضت الهدنة وبدأت حرب طويلة بين القوات المسلمة والصليبيين. لقد حشد الصليبيون قواتهم لتدمير صلاح الدين والعالم الإسلامي، لكنهم انقسموا على أنفسهم إلى فريقين يختلفان بأسلوب القتال لا بالفكرة أو المبدأ:

الأول بقيادة ريموند صاحب طرابلس.

والثاني: يقوده أرناط صاحب الكرك.

كان الأول يوصي بالتريث وانتظار مجيء صلاح الدين فتطبق عليه القوات الصليبية، أما الآخر فكان يريد سرعة مهاجمة صلاح الدين والانتصار عليه.

لكن صلاح الدين تمكن من الاستيلاء على طبرية وإحراق قلعتها وتدمير كل آبار المياه التي تقع على طريقها، ثم كمن بقواته في انتظار الهجوم الصليبي، وما كاد الجيش الصليبي يصل إلى حطين حتى سارع المسلمون بإحراق الحشائش المحيطة بها، ثم انطلقت سهامهم تحصد الأعداء. واضطرت بقية قوات الصليبيين إلى قضاء الليل في ظلام دامس.

ما إن طلع الصباح حتى انقض المسلمون عليهم في هجمة مدروسة، وفي يوم ٢٦ ربيع الآخر من سنة ٥٨٣هـ كان النصر المؤزر لقوات المسلمين، وبر صلاح الدين بقسمه وضرب عنق أرناط بسيفه.

وسرعان ما تحرّر بيت المقدس على يد قوات صلاح الدين وكذلك تحرّرت عكا، وأمر صلاح الدين بترميم المسجد الأقصى وإصلاح ما دمرته الحروب في مدينة القدس.

لكن أوربا انزعجت لما أصاب الصليبيين من هزائم، وسرعان ما انطلقت الدعوة إلى تجهيز حملة صليبية لاسترداد بيت المقدس من المسلمين.

وهكذا انطلقت الحملة الصليبية الثالثة على الشرق يقودها فيردريك بربروس إمبراطور ألمانيا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، ورتشارد الثالث أو قلب الأسد ملك إنكلترا.

كان بربروس يريد من الحملة أن يصنع لنفسه مجداً، وأراد رتشارد أن يستعيد بالشرق ما ضاع من إنجلترا من أملاك في الغرب، وفي الطريق غرق بربروس في أحد الأنهار، ولم يبق سوى فليب ورتشارد.

وبدأ حصار الصليبيين لعكا عامين من ١١٨٩ إلى ١١٩١م، أو من ٥٨٥-٥٨٧هـ، لكن أمكن لصلاح الدين اختراق الحصار البحري ودخول عكا، وتمكن العادل أخو صلاح الدين من هزيمة قوات فردريك بربروس (قبل غرقه)، وفي سنة ١١٩١م تمكن الصليبيون من اقتحام عكا وقتلوا حاميتها وألقوا جثثهم في البحر.

لكن صلاح الدين قام بتخريب مدينة عسقلان وأشعل فيها النيران، وفوجئ الصليبيون بذلك، فبدؤوا يطلبون الصلح بعد رحيل ملك فرنسا فيليب إلى بلاده، وتم صلح الرملة بين رتشارد وصلاح الدين في شعبان سنة ٥٨٨هـ (أيلول ١١٩٢م)، على أن تبقى القدس في يد صلاح الدين، وغادر رتشارد عائداً إلى بلاده.

بعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى الإصلاح الداخلي بتأسيس المدارس والمستشفيات، وذات يوم خرج يستقبل الحجاج العائدين من الحج في عام ٥٨٩هـ، فأصابته الحمى، وما لبث أن توفي -يرحمه الله- في صفر من العام نفسه (آذار سنة ١٢٩٤م).

obeikandl.com

الفصل الثاني
خلفاء صلاح الدين

قبل أن يتوفى صلاح الدين بعشر سنوات أوصى بأن تكون مصر من نصيب ابنه العزيز عثمان على أن يكون وصيّه صاحب حماة المظفر عمر، وبأن تكون دمشق بحوزة ابنه الأفضل بوصاية أخيه العادل، وتظل الوصاية على الملك إلى أن يقدر الملِكُ على القيام بأعباء الحكم.

لكن للأسف بدأ صراع عنيف على السلطة بين خلفاء صلاح الدين؛ إذ حين تولى العزيز عثمان سلطان مصر طمحت نفسه إلى الاستيلاء على دمشق، وذلك لانصراف الأفضل إلى اللهو والعبث، لكن عمهما العادل استطاع أن ينظّم العلاقة بينهما، ومن هنا بدأ يقبض بيد من حديد على السلطة ويصرفها كيف شاء إلى أن هاجم العزيز دمشق سنة ١١٩٦م واستولى عليها فأضحت له الزعامة على مملكة صلاح الدين، وبعد سنتين اتفق أن سقط العزيز عن ظهر جواده في خروج للصيد ولقي مصرعه، وتولى ابنه المنصور الحكم وهو طفل، فأسرع العادل واستولى على القاهرة سنة ١٢٠٠م، وأصبح سلطاناً على مصر وأميراً على دمشق.

الملك العادل:

أفاد العادل من المشاحنات التي جرت بين الصليبيين على حكم إمارة أنطاكية وعقد معاهدة سنة ١٢٠٤م مدتها ست سنوات مع ملك بيت المقدس، فعادت التجارة مع سواحل الشام، لكن ذلك لم يمنع قدوم الحملة الصليبية الرابعة في العام نفسه؛ حاصر العادل الكرك وطرابلس وأجبر الصليبيين على عقد معاهدة سنة ١٢٠٧م، ثم استولى ابنه الكامل على أرمينيا في السنة نفسها فسرّ العادل سروراً عظيماً وجعله أميراً على مصر، ثم جعل ابنه عيسى أميراً على إمارة تمتد من العريش إلى حمص، وصار ابنه الأشرف موسى أمير البلاد الشرقية.

وحين انتهى أمر الهدنة سنة ١٢١٠م أرسل ملك بيت المقدس الجديد جان دي برين إلى روما يطلب إعداد حملة صليبية لمهاجمة الشام، وسرعان ما أقبلت الحملة الصليبية الخامسة بعد ثماني سنوات، في مارس ١٢١٨م إلى دمياط وقادها جان دي برين نفسه، فانبرى له الملك الكامل، وهاجم الصليبيين بعنف بالغ، لكنهم أقاموا برجاً خشبياً ضخماً استطاعوا به الاستيلاء على برج السلسلة.

ومات السلطان العادل في آب سنة ١٢١٨م وهو في طريقه لنجدة ابنه الملك الكامل.

الملك الكامل:

لم تثن وفاة العادل ابنه الكامل عن مواصلة الجهاد، وانتهز فرصة انتظار الصليبيين للإمدادات وأقام جسراً على النيل شمال المدينة وهاجم الصليبيين، غير أنه اضطر للانسحاب إلى فارسكور التي تقع على بعد ستة أميال من دمياط بدلتا مصر، ولم يلبث أن جاءته النجدة يقودها المعظم صاحب دمشق، وأنزل المسلمون هزيمة ساحقة بالصليبيين حتى طلبوا الصلح، ثم غدروا وواصلوا السير حتى بلغوا البحر الصغير، فأمر الكامل بقطع جسور النيل، وسرعان ما أغرقت المياه الأرض التي سيعبر عليها الأعداء، ثم هاجمت قواته الصليبيين وقتلت منهم أعداداً كثيرة، وتم عقد هدنة مدتها ثماني سنوات، وجلا الصليبيون عن دمياط في أيلول سنة ١٢٢١هـ، بعد ثلاث سنين من الحرب والسجال.

ولكن -للأسف- عاد الأمراء الأيوبيون إلى سابق عهدهم من المنازعات، فألزمهم الملك الكامل جادة الصواب.

وحين مات الملك المعظم صاحب دمشق سنة ١٢٢٧م وخلفه ابنه الناصر داود توجه الكامل بعد عام واستولى على بيت المقدس ونابلس، ووقعت المعارك سنة ١٢٢٩م للاستيلاء على دمشق، وسرعان ما كانت من نصيب الكامل فاستولى عليها في تموز من السنة نفسها.

لكن الظروف أجبرت الملك الكامل على الرجوع إلى مصر حين بلغه نبأ اعتزام ابنه الصالح نجم الدين أيوب الاستيلاء على الحكم، عزل الكامل ابنه من ولاية العهد وحبس الأمراء الذين تآمروا معه.

انبرى الكامل للخروج من مصر لتهديد المغول لحدود دولة بني أيوب ومناوأة الخوارزمية لأملاكها، حتى إنهم اقتحموا بلدة أخلاط ونهبوها في نيسان سنة ١٢٣٠م.

على أن المغول أغاروا على مملكة الخوارزمية وقتلوا زعيمها منكبرتي سنة ١٢٣١م، واستولوا على أرمينيا وهددوا الخلافة العباسية في بغداد.

أرسل الخليفة العباسي يستنجد بالكامل، فصحب الكامل ابنه الصالح على رأس جيش لقتال المغول.

ثم عاد الكامل إلى مصر ١٢٣٤م، وأرسل الجيوش واستولى على حرّان والرها بعد عام، ثم أصلح أسوار دمياط والإسكندرية.

نهض الأمراء الأيوبيون لمناوأة الملك الكامل وألفوا حلفاً تزعمه الأشرف موسى صاحب دمشق، لكنه مات بعد سنة من عقد الحلف أي سنة ١٢٣٧م فانهار الحلف، ونشط الكامل فحاصر دمشق واستولى عليها سنة ١٢٣٨م لكنَّ مرضاً شديداً أصابه وأودى بحياته في آذار ١٢٣٨م.

كان الملك الكامل شخصية عظيمة، بل إنه أعظم شخصيات أسرة الأيوبيين بعد صلاح الدين، فقد كان يكره الحرب ويؤثر السلام، وقد حاول جاهداً أن يحتفظ بدولة بني أيوب قوية، لكن إرادة الله قضت بأن تسرع هذه الدولة إلى النهاية إثر التنازع المحموم على الاستئثار بأكبر مساحة من أملاكها، وهذا ما حاوله كل الأمراء بلا استثناء.

الملك الصالح نجم الدين:

بعد وفاة الملك الكامل حدثت أزمة سياسية عنيفة؛ فقد ورثه ابنه العادل الثاني وهو لم يتجاوز الثانية عشرة، وكان أميل إلى اللهو، وسرعان ما تبددّت أموال الدولة.

وسرعان ما راسل الأمراء الصالح أخا العادل، فزحف إلى مصر سنة ١٢٣٧م، فلما سمع العادل الخبر زحف بالجيش إلى بلبيس من مدن مصر، لكن الأمراء حاصروه واعتقلوه واستحثوا الصالح على المجيء، فقدم واستولى على مصر في ذي الحجة، وحبس العادل ثماني سنوات ثم قتله.

والملك الصالح هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، لقّب بنجم الدين، وقد كان مولده بالقاهرة سنة ٦٠٣هـ.

ثم أخذ الصالح في إبادة الأشرفية، واستكثر من المماليك، وشرع في بناء قلعة جزيرة الروضة واتخذها له مسكناً وألحق بها مماليكه.

وفي سنة ٦٤٢هـ، استولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل والقدس، وحاصر دمشق واستولى عليها من الملك الصالح إسماعيل بعد عام.

لكنه اضطر إلى العودة إلى مصر سنة ٦٤٧هـ حين بلغه نبأ خروج الصليبيين قاصدين إلى دمياط.

الحملة الصليبية ووفاة الصالح:

أقبلت الحملة الصليبية على الشرق يقودها ملك فرنسا لويس التاسع، بصحبته زوجته الملكة وأخواه والنبلاء، بدأ نزول لويس إلى البر في صفر سنة ٦٤٧هـ، ونشبت معركة حامية لمنعهم، لكن قائد الجيش المسلم فخر الدين انسحب بجنوده من دمياط، وكانت الفرصة للويس وجنده لأن يملكوا المدينة بغير قتال، فاستولوا عليها بما حوت من أسلحة وذخائر وحبوب ومجانيق.

غضب الملك الصالح أيوب غضباً عاصفاً لما حدث، ثم رحل إلى المنصورة وأعلن التعبئة العامة، فأقبل الناس متطوعين للقتال.

لكن اشتد المرض بالملك الصالح وما لبث أن قضى نحبه بالمنصورة في شعبان سنة ٦٤٧هـ.

أخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته وأمرت بنقل جثمانه سراً في سفينة إلى القاهرة، ودفن السلطان الصالح بجزيرة الروضة.

توران شاه:

لم ينجب الملك الصالح أيوب إلا ولداً واحداً هو توارن شاه الذي ولاه أبوه أعالي الجزيرة، فأرسلت إليه شجرة الدر أميراً إلى حصن كيفا «حيث كان يقيم توران شاه» تستدعيه إلى مصر.

استطاع الصليبيون أن يعبروا البحيرة، هنا انبرى لهم الأمير بيبرس البندقداري قائد الجيش المصري في كمين أعده لهم داخل مدينة المنصورة وقاتلهم قتالاً رهيباً فأبادهم.

أما لويس وعساكره الذين ظلوا خارج مدينة المنصورة فقد يئسوا من النصر، إذ هاجمتهم الأوبئة، ونفدت المؤونة، ولما وصل توران شاه إلى القاهرة رفض مفاوضة لويس.

قرر لويس أن ينسحب إلى قاعدته في دمياط، لكن المماليك طاردوه وعسكره وأنزلوا بجيشه هزيمة منكرة، وقتلوا الآلاف من عسكره ووقع هو ذاته أسيراً في يد القوات المصرية وسيق إلى المنصورة واعتقل في دار القاضي فخر الدين بن لقمان.

كان توران شاه رجلاً لا يحسب للغد حساباً، وبدل أن يكافئ جنوده الذين أبلوا أعظم البلاء ليحصدوا النصر فإنه قرّب أعوانه الذين صحبوه من حصن كيفا وحقد على زوجة أبيه التي حافظت له على الملك وأرسلت تستدعيه ليتسلّم أمانة الحكم.

تعسّف توران شاه في حكمه وفي معالجة الأمور، فما لبث أن اتخذ من مدينة فارسكور داراً للحكم، واعتقل بعض أمراء أسرته، وأبعد مماليك أبيه عن المناصب، وجعلها حكراً على بطانته وخواصه.

وبعث يهدد شجرة الدر، ويطلب إليها أن تؤدي إليه ما نهبته من جواهر وأموال وإلا قتلها شرّ قتلة.

أسرعت شجرة الدر تستدعي قادة المماليك الذين أحرزوا النصر وساعدوها في صد الصليبيين، وحكت لهم ما وقع من توران شاه وقالت لهم:

اقتلوا توران شاه وعليّ رضاكم.

استقر رأي زعماء البحرية على قتل توران شاه، وذهبوا إليه في فارسكور وبادره الأمير ركن الدين بيبرس فضربه بالسيف ضربة أطارت أصابع يده، ثم تبعه باقي الأمراء. أخذ توران شاه على غرة ففر إلى برج خشبي كان قد أعدّه

للإقامة فيه، ولكن بيبرس ومن معه من الأمراء تبعوه وأشعلوا النار في البرج. لم يلجأ توران شاه إلا إلى النيل فألقى بنفسه في الماء، وجدّ في السباحة محاولاً النجاة، ولكن نشاب البحرية لاحقته، وسبح بعضهم خلفه وقطّعوه بالسيف وهو يصيح:

ما أريد ملكاً، دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين.

وانتهى توران شاه بأن مات جريحاً غريقاً على حد قول المقريزي(*).

كان توران شاه آخر سلاطين بني أيوب في مصر، وبنهايته المأساوية زالت دولة بني أيوب سنة ١٢٥٠م.

ويعلق بعض المؤرخين المحدثين على ما حدث من سقوط دولة بني أيوب على هذه الصورة بأنه من الغريب أن هذه الدولة التي بدأت بعظيم من أعظم الرجال هو صلاح الدين وانتهت بملك عظيم كذلك هو الملك الصالح أيوب، كانت نهايتها على يد امرأة مملوكة من هؤلاء اللاتي يظهرن في عصور الضعف، ويساعدن على سقوط الدول(**).

(*) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول.

(**) انظر: كتاب أوراق ذابلة من حضارتنا للدكتور عبدالحليم عويس، ص١٢٠.

وبقي لويس التاسع في محبسه إلى أن فاوضه المماليك على إطلاق سراحه وأمرائه مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط، وفك أسر من لديه من المسلمين، بشرط ألا يقصد سواحل ديار الإسلام مرة أخرى، وتعهد المماليك أيضاً بإطلاق سراح أسرى النصارى منذ عهد العادل الأيوبي، أما بقية أسرى الصليبيين الذين سيقوا إلى القاهرة فقد تم الاتفاق على ألا يتم إطلاق سراحهم إلا مقابل ثمان مئة ألف دينار، يدفع نصفها عاجلاً والنصف الآخر بعد وصول الملك إلى عكا(*).

(*) انظر ابن خلدون: العبر، ج٣، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦.